الشوارع الضالة

وصل إلى الفندق بعد عناء يوم طويل وشاق. دخل إلى جناحه مرهقاً. لم يكـن يتوقع أن يحـدث له هذا بعد غيـاب كل هذه السـنين. حاول أن ينام؛ إلا أن صوت الضابط، الذي كان يضع ختم الدخول بين فكيه وهو يتحدث، يرنّ في أذنيه:

– ولماذا تم إلغاء إقامتك؟!

– لقد عدت إلى الوطن. أهناك ما يُجرِّم عودتي بعد هذا الغياب؟!

– هنا، أنا أسأل، وأنت تجيب (قالها بغضب).

حاول أن ينسـى ذلك التحقيق السخيف وغير المبرر، وقام من سريره

متجهاً إلى أحد الشبابيك يتأمل مدينته التي زادت ظلاماً عما قبل. معظم الشوارع والبيوت غير مضاءة. عويل الكلاب المتشردة في الطرقات الخالية من البشر تزيد الليل وحشةً.

استنشق نفساً عميقاً وتذكر ضيق الاختناق الذي عانى منه في صالة المطار، التي امتلأت بالقادمين على طائرتين وحيدتين هبطتا في المطار الدولي الذي لم يتغير كثيراً منذ أن تركه؛ إلا أن الجدران والأرضيات بهت لونها بل كادت أن تختفي مع امتداد الزمن، و5 شبابيك استقبال، كل شباك به نافذتان، والموظفون 3 فقط. وفي السقف ثمة غراب أسود ضخم يراقب القادمين بإشمئزاز.

أثناء انتظاره، جرفه الحنين إلى ذكريات بعيدة. تذكر بكاءه الشديد وانهياره عندما باع آلة الخياطة الخاصة بوالدته ليتمكن من الهجرة إلى الخارج، وسافر وكل ما لديه لا يكفي ليلة واحدة في فندق.

تنقل بين شباكي الغرفة محاولاً أن يخمن موقع مدرسته الثانوية، التي تبعد أمتاراً قليلة عن الفندق الذي نزل فيه؛ إلا أن الظلام كان حالكاً. آخر بيت سكن فيه كان على بعد كيلومترين تقريباً. الحقيقة أنه لم يكن بيتاً، بل كان "دكاناً"، عبارة عن غرفة صغيرة وحمام، فقد كانت أمه تتنقل به من حي إلى حي، ومن "دكان" إلى "دكان"، بحثاً عن إيجار زهيد ولقمة العيش.

يعود إلى السرير ويرن في أذنيه مرة أخرى صوت الضابط:

– لماذا لم تأتِ إلى بلدك منذ أكثر من 15 عاماً؟!

– لديّ أسبابي الخاصة.

أشار له الضابط بأن يقف جانباً، دون أن يعرف السبب. ظل مدة طويلة يراقب الآخرين يمرون من أمامه.

لقد زار بلدان العالم بهذا الجواز دون أن يتعرض لأي مساءلة من أي نوع؛ ليس لقوة الجواز، بل لمنصبه الذي كان: مدير عام شركة شهيرة لها فروع ومكاتب في معظم أرجاء العالم.

(2)

في اليوم التالي، خرج مشياً على الأقدام، وعرّج على عدة أحياء قديمة متجاورة كان قد نشأ فيها وحيداً منذ طفولته، مع أمه التي كانت له الأب والأخ والصديق، وكانت تعمل على آلة الخياطة، و"دلّالة" أقمشة وبعض العطور والملابس، وكافحت من أجله كفاحاً طويلاً... كانت الطرقات والشوارع والأزقة تبث في داخله الحنين إلى المرأة الوحيدة التي لم يعرف غيرها في الحياة، وشريطاً من الذكريات المؤلمة أمام عينيه؛ فعندما أكمل

الثانوية العامة بمستوى درجات عالٍ يؤهله لكلية الطب أو الهندسة، أراد فوراً أن يبحث عن عمل ليعوض أمه سنين الشقاء والعناء. جثت عند قدميه باكية متوسلة أن يكمل دراسته، وألا يفكر بأي شيء آخر سوى حصوله على الشهادة الجامعية. ونزولاً عند رغبتها وإصرارها، واصل تعليمه والتحق بكلية التجارة والاقتصاد.

لم ينْسَ لياليها الطويلة المتعبة وهي تحرم نفسها من الأكل والنوم لأجله.

جُلّ الأيام ينام والدموع ملء عينيه، محاولاً ألا يجهش بالبكاء، وهو يراقب أمه من تحت لحافه الذي لا يُسمن ولا يُغني من البرد شيئاً، وهي على ماكينة الخياطة، وكيف تصب على وجهها الماء البارد من "الزير"، لتتمكن من مواصلة العمل، والإرهاق والتعب ينخر في جسدها كالسوس.

كانت كل شيء في حياته. وكان باستطاعته ترك الدراسة والبحث عن عمل فقط كي يُريحها من هذا العذاب؛ ولكنه كان يعلم جيداً أنه سيكسر قلبها، وأنها سعيدة بما تقدمه له الآن.

توفيت وهو في السنة الثانية من دراسته الجامعية. لم يحضر جنازتها

أحد. ولم يستطع أن يكمل الحياة وحيداً من دونها في هذه المدينة التي لم تقدم له شيئاً سوى حلم مبتور.

قرر الهجرة. وفي إحدى الليالي احتضن آلة الخياطة بكل قوته، وظل يتمسح بها ويقبّلها والدموع تنهمر من عينيه. تحولت الآلة الجامدة، الباردة، الصامتة... إلى صدر دافئ يحتويه كأنه يناجي أمه ويودعها للمرة الثانية.

باع ماكينة الخياطة، وأضاف إلى ثمنها مبلغاً من المال كانت أمه قد ادخرته له، وتمكّن من السفر إلى الخارج، وبدأ حياته عاملاً في محل لزينة السيارات، ثم تنقل بين شركات متفرقة عدة، إلى أن استقر في شركة للاستيراد والتصدير، وطوّر أداءه ومهاراته، واستطاع أن يحقق حلم أمه ويكمل دراسته عن بُعْد، بل تجاوز حلمها وأخذ الدكتوراه في مجاله، وأصبح مديراً عاماً للشركة.

(3)

قبل وصوله إلى السوق الشعبي، بدأ يبحث عن صرَّاف. لم يجد سوى محل صغير جداً يتعامل بشكل يومي مع أصحاب الباصات وسيارات الأجرة، و"الموتورات" وبعض المواصلات القديمة، التي عادت إلى

الحياة مجدداً، كالحمير والبغال... كان المحل يحتوي على "شوالات" عدة كلّ منها يحتوي على عملة معدنية معينة – لم تكن موجودة في عهده، وأمامه مجموعة من علب الفول والفاصوليا والصلصة الفارغة. كان الصرَّاف يغرف من "شوالات" النقود المعدنية ويعبئ هذه العلب، وكل علبة لها تسعيرة معينة من الأوراق النقدية.

أراد أن يصرف مبلغاً بسيطاً من المال، فقام الصرّاف وأعطاه رُزَماً من الأوراق النقدية المختلفة أضعافاً مضاعفة، بالإضافة إلى عشر علب متفاوتة الحجم بها عملات معدنية مختلفة، فاضطر إلى وضعها جميعاً في كيس واحد.

معظم البائعين والبائعات الذين على الرصيف لم يبلغوا الحُلُم بعد. لمح في يد أحدهم ميدالية خشبية مكتوباً عليها لفظ الجلالة (الله)، فأراد أن يشتريها. وافق على بيعها له، بسعر عالٍ جداً. وضعها على صدره بعد أن اشترى لها سلسلة فضية، أسوة بأمه التي كانت تعلقها كالقلادة مع مفتاح البيت.

وضع كيس العملات المعدنية على الأرض، وأخرج من جيبه طبعات مختلفة من الأوراق النقدية، وظل يتأملها مستغرباً ومتفحصاً محاولاً أن يتعرف إليها، كأنها المرة الأولى في حياته التي يرى فيها نقوداً! استغرب

البائـع من تعليق الميدالية، وعدم معرفته بالنقـود، مما أوحى إليه بأن هذا الرجـل الأنيـق جداً يعاني تخلفـاً في العقل أو نقصاً في الفهم. سـاعده في استخراج المبلغ المسـتحق، وهو يتمتم ببعض الآيات القرآنية، وبكلمات يرْقِـي بها نفسـه، وحامـداً ربه على نعمـة العقل التي هو فيهـا، وختمها بقوله: "الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس".

أثناء ذلك، مرّ من أمامه بائع متجول بعربة فيها تين شوكي. استوقفه، وظـل يأكل من التـين، وذهبت به ذكرياته إلى أمـه التي كانت تحب التين الشـوكي كثيراً. تذكّر عندما سرق واحدة وذهب بها إليها، فلم تعاتبه ولم تقسُ عليه، بل قامت بإزالة الأشواك من يده ومن قلبه بكل حب وحنان، وأعطته قطعة معدنية واحدة ليلحق بصاحب التين ويعتذر منه، لأنه أخذ منـه شـيئاً دون مقابل. ذهب مسرعاً يبحث عنـه، وعندما وجده رمى له النقود وفرّ هارباً دون أن ينبس ببنت شفة، مخبراً أمه بأنه اعتذر له. كانت تلك أول وآخر كذبة كذبها عليها.

انتهـى مـن أكل التـين، ونـاول الرجل كيـس العمـلات ليأخذ منه الثمن.

انتشر خبر تخلفه العقلي في السوق بسرعة البرق، فكان كلما مرَّ بمكان سـمع آيات قرآنية وأدعية مأثـورة وحمداً وشـكراً... وينظرون إليه وإلى هيبته بإشفاق شديد.

(4)

وصل إلى مطعم يقدم الكباب البلدي. وعلى باب المطعم شواية دجاج.

طلب صحن كباب وسلطة ونصف دجاجة، وجلس على الكرسي والطاولة الحديديين وراح يأكل وجبته التي كان يأكلها في السنة أو السنتين مرة واحدة. أكل بشراهة ولذة سائلاً نفسه عن السبب: هل هو نتيجة المشي طول اليوم، أم تعويضاً عن حرمان سنين مضت؟!

فجأة، وجد أمامه طفلاً عمره سنتان يجثو على ركبتيه، ومادّاً بطن يديه إلى الأسفل، وفاتحاً فمه يخرج لسانه ويعيده بحركة سريعة، ويسيل لعابه، ويتحرك ويتحكم في جسده بطريقة مدهشة كأنه حيوان في سيرك!

التفت يمنة ويسرة يبحث عن أهل له، فلم يجد أحداً.

أخذ الصحن من على الطاولة ونزل به إلى الطفل. أخذ الطفل الطعام، رافعاً ثوبه المتسخ القصير، حتى بانت سوأته، وأخذ يجري بالطعام بأقصى سرعة، فسقطت منه قطعة من فخذ الدجاج. عاد والتقطها بفمه دون أن يأبه لالتصاق التراب بها، وذهب مسرعاً ورمى الطعام بالقرب من كلبة كانت في انتظاره، قامت بتفتيت الطعام وإطعامه من فمها وشاركته الأكل، ثم تمددت على ظهرها ليحتضنها ويرضع من ثديها وينام.

واصـل المشي بين الأحيـاء والشـوارع وكأنه إبرة تجُـرُّ خلفها خيوط الذكريات تُرقّع شـوارع وأحياء صدئت وشـاخت وتغـيرت الكثير من ملامحها وصُبغت سماؤها بأدخنة سوداء، وانتشرت بين أرصفتها المتسخة جِراء الشوارع الضالة.

2016 /4 /19